

التاريخ العمراني لمدينة القيروان

بعد أن فتح المسلمون مصر عام ٢١ هـ، توجهوا نحو الغرب، ففتحوا برقة وزويلة وجبال نفوسة عام ٢٣ بقيادة عمرو بن العاص^١، ثم قاموا بعدة غزوات لإفريقية، أولاها عام ٣٠ بقيادة عبد الله بن أبي السرح، وشارك فيها عدد كبير من الأشراف والصحابة. وفي عام ٣٤ غزا معاوية بن حديج إفريقية، ونزل بمكان القيروان اليوم، وعسكر بجيشه، واحتفر آباراً سميت بـ "آبار حديج"، وكان موقعها خارج باب تونس منحرفة عنه نحو الشرق. وفي هذه الغزوة ماتت بنت لعبد الله بن عمر بن الخطاب، ودفنت بموضع غربي القيروان، خارج باب سلم، صار فيما بعد مقبرة عامة، سميت بـ "مقبرة قریش"، وهي أكبر مقبرة في القيروان وتعرف اليوم كذلك بمقبرة "الجناح الأخضر". وعاد معاوية لغزو إفريقية عام ٤١، ونزل بناحية القرن عند جبل وسلات، وبنى مساكن سماها قيروانا، أقام بها ٣ سنوات، ثم قفل راجعاً إلى الشام^٢.

وفي عام ٤٦ قام عقبة بن نافع والي برقة وزويلة بغزوة تمهيدية، فتح فيها عدة حصون وقصور ألزم أهلها الطاعة، وقبلوا الإسلام، فترك فيهم من يفقههم في دينهم، ثم كر راجعاً إلى ولايته.

تأسيس القيروان:

وعندما عاد أهل إفريقية إلى التمرد أرسل معاوية بن أبي سفيان ١٠ آلاف جندي إلى عقبة بن نافع وأمره بالتوجه إلى إفريقية لإخضاع أهلها. فدخلها عام ٥٠ ووجد أن الكثيرين ممن أسلم من الأفارقة ارتدوا وعاثوا في البلاد فساداً، فسأه ذلك واستنزل قبائل كثيرة من البربر على الطاعة، ولم يفلت أحداً من أهل القرى والأخصاص دون أن يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم على يديه خلق كثير، فأمدهم

(١) الثعالبي عبد العزيز - تاريخ شمال إفريقية - دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٧ ص ٢٩.

(٢) المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد - رياض النفوس - دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٣ - ٣٠/١.

بالمعلمين والمرشدين ليفقهوهم في الدين. لكنه أدرك أن ذلك وحده لا يكفي لهدايتهم ما لم يقترن بوجود مؤسسات اجتماعية يلجأ إليها المسلمون عند الحاجة، يقتبسون منها معنويات الإسلام وتقاليدته. فدعا ذوي الرأي والمكانة من القواد ووجوه المسلمين ليشاورهم في ذلك، ومعباً قاله لهم: إن أهل هذه البلاد ضعفاء الأخلاق، تنقصهم العزيمة، إذا عضهم السيف أطاعوا، وإذا رفع عنهم عصوا، وعادوا إلى ما كانوا عليه من عاداتهم وأديانهم، ولست أرى أن ينزل المسلمون بين أظهرهم، ثم يرتحلوا عنهم رأياً سديداً مسلماً، بل لا بد من إقرارهم لتمكين الإسلام في البلاد. ورأيت أن أبني هنا مدينة للمسلمين تكون عماداً لهم في أمورهم، وملاذاً يصيرون إليه، فاستصوب الحاضرون رأيه^٣. وانطلقوا يبحثون عن موقع ملائم، إلى أن وقع اختيارهم على مكان القيروان اليوم لأنه واقع في الصحراء بعيداً عن البحر، فلا تطرقه مراكب الروم، وبعيداً عن الجبال، معاقل البربر، ويؤمن مرعى للإبل، بالإضافة إلى كونه مكاناً منبسطاً يساعد على إعداد الجيش ويسهل عمليات الكر والفر دفاعاً وهجوماً. فأمر عقبة أصحابه برسم الخطط، واختط أولاً المسجد الجامع، وجعل دار الإمارة في قبليه، ثم أخذ الناس ببناء الدور والمسكن والمساجد، وعمرت القيروان، وشد الناس إليها المطايا من كل أفق، وعظم قدرها^٤. ولم يمنعها انعزالها وبعدها عن العمران من أن تنمو وتكبر^٥. كما أمر عقبة القواد العسكريين والمدنيين الذين كانوا معه أن ينزلوا في الأماكن الأكثر مناعة والتي يسهل الدفاع عنها، وأن يشيدوا قلاعاً وحصوناً حيث لا توجد، ففعلوا^٦.

ويعتبر لومبارد أن القيروان قامت بالفعل فوق موضع "مفتاح" على تخوم الصحراء الكبرى والسهول السهبية وشطوط (سبخات) الجنوب التونسي، تحمي

(٣) الحموي ياقوت - معجم البلدان - دار إحياء التراث العربي ببيروت ١٩٧٩ - ٤٢٠/٤. والقزويني زكرياء - آثار

البلاد وأخبار العباد - دار بيروت ١٩٨٤ ص ٢٤٢.

(٤) المراكشي ابن عذاري - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - دار الثقافة ببيروت ١٩٤٨ - ٢٠/١.

(٥) أبحاث من ندوة المدينة العربية (خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي) - المدينة المنورة ١٩٨١ ص ٢١٨.

(٦) الوزان الحسن - وصف إفريقيا - ت محمد حجي ومحمد خضر - دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٤ - ٤١/١.

طريق واحات كبيراً تستطيع متى شئت أن تحفظه أو تقطعه، هذا هو طريق
الواحات الممتد حتى مصر^٧.

القيروان في عصر الولاية:

عام ٥٥ عزل عقبة بن نافع عن إفريقية، وكان عاملاً تابعاً لوالي مصر،
وعين بدلاً منه أبو المهاجر دينار، فكره أن ينزل بقيروان عقبة، واختار موقعاً يبعد
عنها بمقدار ميلين إلى الشمال، وبنى فيه مدينة سماها: "تِكروان"، وأمر الناس أن
يحرقوا قيروان عقبة ويعمروا مدينته. ولما علم الخليفة يزيد بن معاوية بما جرى
للقيروان قال لعقبة: "أدركها قبل أن تفسد"، وردده والياً على إفريقية لا عاملاً تابعاً
لوالي مصر^٨، فوصلها عام ٦٢، وأمر بتخريب "تكروان" وعاد إلى القيروان، فأعد
بناها وأصلح أمرها، ودار حولها مع وجوه أصحابه وهو يدعو الله: "اللهم املأها
علماً وفقهاً وامرأها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك وذلاً لمن كفر بك،
وأعز بها الإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض"^٩. واستخلف عقبة زهير بن قيس
البلوي على القيروان ليتابع الغزو حتى وصل إلى المغرب الأقصى، ولم يصدده عن
تقدمه إلا المحيط الأطلسي، فأقحم فرسه فيه ورفع يديه إلى السماء قائلاً: "اللهم اشهد
أنني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا
يعبد أحد دونك"^{١٠} (المخطط ١) ثم قفل راجعاً يريد إفريقية، ولكن كسيلة، زعيم
البربر، كمن له عند تهودا وقتله مع ٣٠٠ من أصحابه، ثم قصد القيروان، فخرج
زهير بن قيس، وتوجه نحو برقة، كما خرج العرب من القيروان هاربين، ولم يبق
بها إلا أصحاب العيال وكل متقل من التجار وأهل الذمة، وطلبوا الأمان من كسيلة

(٧) لومبارد موريس - الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي - ت عبد الرحمن حميدة - دار الفكر بدمشق ١٩٧٩ ص ١٨٣.

(٨) حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ - ٢٨٠/١.

(٩) النويري أحمد - نهاية الأرب - المكتبة العربية بالقاهرة ١٩٨٤ - ٢٣/٢٤. والتميمي محمد - طبقات طماء إفريقية -

دار الكتاب اللبناني بيروت ٨/١، وابن عذاري ٢٣/١.

(١٠) عبد الوهاب حسن حسني - خلاصة تاريخ تونس - الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ - ص ٥٧.